بالاضطراب والقلق. يقول أبو الحسن الندوي [1] «دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ وفلسفته التي لا مجال عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما لما قدمت يداه في حياته الأولى. وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس أو دابة سائمة أو حيوان خسيس أو إنسان شقي معذب.

بينما نادت المسيحية بأن الإنسان عاصٍ ومذنب بالولادة والفطرة، والمسيح صار كفارة وفداء له عن هذه الذنوب فأنشأت هذه العقيدة بطبيعة الحال في نفوس الملايين في العالم المتمدن المعمور الذي اعتنق المسيحية سوء ظن بنفوسهم ويأساً عن مستقبلهم وعن الرحمة الإلهية».

إن من خصائص الإسلام ومميزاته أنه أعاد الإنسانية إلى المعلومات الصحيحة بشأن فطرة الإنسان السليمة من كل عيب البريئة من كل إثم ويكون الإنسان هو المسئول وحده عن كل ما يصدر عنه من خير أو شر. ومن هنا كان الإنسان شاعراً بعبء المسئولية. ومن هنا كانت شخصية المسلم قوية أو هكذا ينبغي أن تكون خاصة وأنه كل وقت يستطيع بعون الله تعالى أن يعود كيوم ولدته أمه بعمل الصالحات وبالتوبة من كل ذنب والإيمان وعمل الصالحات. والمعروف أن باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها [2].

وفيما يتصل بلفظ الرب في الجزئية الكريمة: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ فالمعروف أن لفظ الرب يرتبط استعماله عادة بالخصوص كما هو الحال في هذه المناسبة وفي ذلك إشعار بالرضا من الله تعالى عن هؤلاء العباد الذين رباهم بنعمه وقاموا في المقابل بما يجب عليهم من شكر لله تعالى على آلائه. ومما يزيد جو الرضا بشراً وحبوراً وشذاه تضوعاً وسطوعاً كون لفظ الرب قد لحق به

---

(١) السيرة النبوية ص ٤١٠ دار الشرق. جدة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.

(١) انظر مثلاً رياض الصالحين ص ١٢.

الضمير العائد على هؤلاء المتقين ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ إن رب العزة قد تفضل على كل العباد بالمنن التي لا تحصى ولكن المتقين هم الذين قدروها حق قدرها. فاستحقوا أن يكون لهم يوم القيامة حظ من الخصوص فكان القول: ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ الذي يذكرنا بمثل قوله تعالى: ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[1] مما يعتبر دليلاً على رضا الله تعالى عن هؤلاء العباد ورضا العباد بالنعيم المقيم الذي تفضل به رب العزة عليهم.

وإذا كان كل ما سبق من نعيم ورضا وسعادة وانشراح من نصيب المؤمنين المتقين. فإن الآية الكريمة بأسلوبها المعجز تعقد مقارنة بين حظ المؤمنين المتقين من النعيم المقيم وحظ الآخرين الكافرين المكذبين من العذاب الأليم. قال تعالى : ﴿ **كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ ونود هنا أن نشير إلى مظهر من مظاهر إعجاز النظم القرآني. إننا بصدد بلاغة بالحذف ويمكن ببساطة اكتشاف ذلك الحذف وإدراك الإعجاز بسببه حينما يجمع بين هذه الآية الكريمة والآية السابقة عليها. إن هذه الآية تعتبر مكملة معنوياً لما جاء في الآية الكريمة السابقة من مقارنة صحيحة صريحة بين من كان على بينة من ربه ومن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. إن كل عاقل يستطيع أن ينتهي بداهة إلى النتيجة المنطقية. وهل هناك من أحد له مثقال ذرة من عقل إلا ويفرق تفريقاً بيناً، بين من كان على بيّنة من ربه ومن زين له سوء عمله واتبع هواه ويعلم يقيناً أن ثواب الأول جزيل وعقاب الثاني عظيم. وها هي ذي الآية الكريمة التالية تشير إلى كل من الثواب والعقاب، وفي الوقت ذاته هي تسير على غرار الآية الكريمة السابقة التي يتم فيها الحث على المقارنة بين الفريقين وإدراك الفرق الشاسع بينهما بناء على عملهما وهاتان هما الآيتان الكريمتان معاً. وننبه إلى طريقة الآية الكريمة الثانية في المقارنة حيث يكتفي بالشق الثاني من المقارنة

---

(١) سورة البينة ٨.

باعتبار الشق الأول مفهوماً لكل ذي بصيرة نيرة لكون الآيتين الكريمتين متلاحمتين معنوياً فما حذف في الثانية دل عليه ذكره في الأولى قال تعالى: **﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطعوا أمعاءهم ﴾**.

وليس بخافٍ أن تقدير الكلام بعد إعادة المحذوف والله تعالى أعلم: أفمن كان خالداً في الجنة التي صفتها كذا وكذا.. كمن هو خالد في النار وذلك على غرار الاستفهام التقريري الحاث على المقارنة بين الفريقين في الآية الكريمة الأولى **﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾** وليس بخافٍ أيضاً أن هذا القسم من السورة الكريمة قد جرت العادة فيه بأن يتم تحول التعبير في أكثر من موضع فيه، من طريقة إلى أخرى ومن أقرب الأمثلة على ذلك أولى الآيتين الكريمتين اللتين نحن بصددهما والآية الكريمة السابقة عليهما. لقد تم في الآية السابقة مراعاة اللفظ مرة فاستعملت لفظة قرية. والمعنى مرة أخرى. فاستعمل الضمير العائد على أهل القرية. قال تعالى: **﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾**.. وفي الآية الكريمة التي تليها تمّ الشيء نفسه. فقد روعي مرة لفظ من ومرة أخرى معناه. لقد استعمل ضمير المفرد أولاً وضمير الجمع ثانياً. كما مر بنا من قبل. قال تعالى: **﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾**.

إن هذا التماثل في الطريقة المعجزة من التعبير التي وجدنا لها من قبل أكثر من مثال، تستعمل هي ذاتها بشأن الآيتين الكريمتين اللتين تدعوان إلى المقارنة بين القومين، فالحكم لهما أو عليهما. وتضيف إلى ذلك إعجازاً من نوع

آخر. إنه الإعجاز البلاغي بالحذف. وللزمخشري في تفسيره كلام قيم في هذا الشأن نود تدوينه يقول[1]: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار.. كمن هو خالد في النار**﴾ قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله**﴾. فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في النار. فإن قلت: فلم عُرِّيَ من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قلت تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتسمك بالبيّنة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل:

افـــرح أن أرزأ الكـــرام وأن   أورث ذوداً شصائصاً نَبَلا[2]؟

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: اتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله؟ والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أزن به فكأنه قال له:

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٩.

(٢) البيت في اللسان شصص والشصائص جمع الشصوص. وهي الناقة التي لا لبن لها. وقيل القليلة اللبن. وفي اللسان جزأ «نبلًا: صغاراً» والقائل هو حضرمي بن عامر كان له تسعة إخوة فهلكوا وكان له ابن عم اسمه جزء (بالفتح) وكان ينافسه فزعم أن حضرمياً سر بموت إخوته لأنه ورثهم فقال حضرمي:

أفـــرح أن أرزأ الـكـــرام وأن   أورث ذوداً شـصـــائـصـــاً نـبـــلا
إن كـنـت أزنـتـنـي بهـــا كـذبـــاً   جـــزء فـــلاقيت مـثـلـهـــا عـجـــلا

يريد أأفرح فحذف الهمزة وهو على طريق الإنكار. أي لا وجه للفرح بموت الكرام من إخوتي لأرث شصائص لا ألبان لها واحدتها شصوص. ونبلًا صغاراً انظر اللسان «جزأ»أزنتني اتهمتني بها جاء في القاموس: «زن فلاناً بخير أو شر ظنه به كأزنه وأزننته بكذا اتهمته به».

نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار».

وما حظ هؤلاء الكافرين من النار في مقابل حظ المؤمنين في الجنة؟ قال تعالى: ﴿ **كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾. وأول ما يلاحظ هو أننا بصدد خلود من نصيب أهل النار. وهو خلود قادر على أخذه في الاعتبار بشأن أهل الجنة. وسبق أن بينا موضعه من الحذف البلاغي كما يلاحظ أن نصيب أهل النار في النار من الداخل إلى جوفهم عن طريق أفواههم متصل بالشراب وعلى غرار الشراب الذي هو من نصيب المتقين، الذي لاحظنا. وقد ارتبط في حق أهل الجنة الطعام بالشراب لأن ذلك من متعلقات أول أنواع أنهار الجنة وهي أنهار الماء ولم يرتبط في حق أهل النار شيء من ذلك لأن نوع الشراب الذي هو من نصيبهم لا شيء من خير يرتبط به مطلقاً. هذا إلى أن أهل النار بحاجة إلى ما يطفىء اللهيب في جوفهم وهم الذين لا يحيون في النار ولا يموتون. وكأن ذلك السائل من جنس أول أنواع أنهار أهل الجنة، أعني الماء. ولكن شتان ما بين النوعين من الماء. إن الماء الذي هو من نصيب أهل النار ماء يغلي من شدة الحرارة إذا اقترب شواها ومن شوى الرأس نزعها. وبما أنهم مضطرون لأن يشربوا من هذا النوع من المياه الشديدة الحرارة، لذا فإنها بدلاً من أن تطفىء لهيب أجوافهم هي تمزق أمعاءهم أي مصارينهم فتخرج من أدبارهم قطعاً[1]. قال تعالى: ﴿ **وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾. وكما فهمنا من قبل أن أهل الجنة خالدون في مقابل خلود أهل النار المذكور، فإنا نفهم أن أهل الجنة يسقون ما يشاءون بواسطة الولدان والحور العين بما في ذلك الماء البارد السلسبيل وذلك في مقابل سقي ملائكة العذاب الكافرين ما هم

---

(١) المعى بالفتح وإلى من أعفاج البطن . وقد يؤنث ج أمعاء (القاموس) وجاء في البحر المحيط ٨ ـ ٧١ المعى مقصور وألفه منقلبة عن ياء يدل عليه تثنيته معيان بقلب الألف ياء والمعى ما في البطن من الحوايا» .

مرغمون على شربه من ماء حميم ومن صديد. جاء في سورة إبراهيم بشأن الكافرين [1] قوله تعالى: ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾. «عن رسول الله ﷺ في قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال: يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره قال يقول الله: ﴿**وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ يقول الله عز وجل: ﴿ **يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾ [2]. وجاء في سورة الواقعة بشأن المؤمنين السابقين قوله تعالى: [3] ﴿ **على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾.

* * *

(١) الآيات ١٥ ــ ١٧ .
(٢) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٢ .
(٣) سورة الواقعة ١٥ ــ ١٩ .

القِسمُ الرّابع

المنافقون طبع الله على قلوبهم والّذين اهتدوا زادهم هدى

قال تعالى: ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم. والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم. فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم. فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾.

هذا القسم الذي يتكون من أربع آيات، يتحدث في آيتين كريمتين هما الأولى والثالثة، عن المنافقين ويتحدث في آيتين كريمتين هما الثانية والرابعة عن المؤمنين المتقين بقيادة المصطفى ﷺ. إن حسن الاستعداد من قبل المؤمنين لامتثال أوامر الله تعالى وأوامر حبيبه ﷺ اقتضى أن يكون منه جل وعلا عون لهؤلاء المؤمنين على أنفسهم فإذا كانوا قد اهتدوا فقد زادهم هدى إلى هداهم وآتاهم تقواهم بأن ألهمهم رشدهم. وإن سوء الاستعداد من قبل المنافقين الذين سدوا كل منافذ الهداية اقتضى أن يطبع الله تعالى على قلوبهم. وكيف يصل صوت الحق إلى أفئدتهم إذا كانوا غير مستعدين لقبوله بل تلقيه بل مجرد سماعه. وذلك بإغلاق المنفذ الذي يمكن له أن يتسرب منه أعني السماع

المتدبر. وكانت النتيجة أنهم بدلاً من أن يتبعوا النور الذي أنزل إليهم من ربهم اتبعوا أهواءهم. فهم في عمى البصيرة بمثابة الأعمى الذي وضعت على عينه غشاوة. فلا يهتدي إلى خير أبداً.

وإن أسلوب الآية الثالثة عنيف في مخاطبتها للمنافقين ـ وللكافرين كذلك ـ لأن الساعة آتية لا ريب فيها وقد جاءت علاماتها ولن تنفع الذكرى إذا جاءت الساعة وفات الأوان. أما نصيب المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ من الإرشاد في الآية الرابعة فكبير. إنه العلم بأنه لا إله إلا الله فالعمل وفق هذا العلم بالاستمرار في استغفاره ﷺ لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات . ومع أن الجزئية الأخيرة ﴿**والله يعلم متقلبكم ومثواكم**﴾ يتوجه فيها الخطاب للمؤمنين مشعراً لهم بأن الله تعالى يعلم متقلبهم نهاراً ومثواهم ليلاً فإن الخطاب شامل لسواهم كذلك. تماماً كما كان الاستغفار شاملاً للمؤمنين إضافة إليه ﷺ. فعلى الخلق جميعاً أن يعلموا أنه يستوي في علم الله تعالى من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وساربٌ بالنهار.

وبعد هذه النظرة الأولى السريعة نحن بحاجة إلى نظرة أخرى أقل سرعة فمع الآية الكريمة الأولى قال تعالى: ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾. إن الآية الكريمة تتحدث عن المنافقين ومدى استعدادهم لفهم ما يسمعون من درر القول التي تتساقط من فيه ﷺ قرآناً أو حديثاً شريفاً. وأول ما يفهم من الآية الكريمة هو أن هؤلاء المنافقين ليسوا متهيئين مطلقاً لأن يستقبلوا شيئاً من الخير الذي يصدر عنه ﷺ. فهم بمثابة الأرض السبخة التي لا تمسك الماء كي ينتفع به فضلاً عن كونها لا تنبت هي الزرع. فكيف عبرت الآية الكريمة بأسلوب القرآن الكريم المعجز عن هذا المعنى ؟

لقد بينت الآية الكريمة بطريقتها العجيبة الغريبة أن هؤلاء المنافقين قد عطلوا كل نعم الله تعالى التي امتن بها جل وعلا عليهم كي يصلهم نور اليقين، وذلك بسد كل المنافذ التي يمكن للإيمان أن يتسلل منها وإغلاقها وإحكام القيود والأغلال عليها. وكيف كان ذلك؟ كان ذلك بتبيين أن المنافذ التي يمكن للحق أن يلجها ونور الإيمان أن يتسلل منها قد سدت تماماً بكل ما من شأنه أن يجعل صوت الحق غير مسموع وحرارة الإيمان غير واصلة ونور الهداية غير قادر على النفاذ.

وقد ابتدأت الآية الكريمة بالإشارة إلى واحد من هذه المنافذ التي سدت منبهة بذلك الابتداء إلى أن هذا المنفذ لو أن نفس صاحبه سوية وهيأ له فرصة العمل الصحيح لقام خير قيام بالوظيفة الأولى التي خلق من أجلها. ولسبق غيره وهو الأكثر استعداداً إلى الوصول للنتيجة الحسنة المرجوة. أما هذا المنفذ فهو الأذن أو السماع.

وعلى غرار تكوّن الأذن شكلاً من شقين أو أذنين في الحقيقة خارجية وداخلية فإن لهذه الأذن مضموناً وظيفتين. الوظيفة الأولى لا يستطيع الإنسان لها دفعاً. وهي السماع المجرد. ويستوي كل من أنعم الله تعالى عليه بنعمة السمع في قيام أذنه بهذه الوظيفة. وإن أراد هو غير ذلك. وقد أشارت الآية الكريمة في القول: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ إلى هذه الحقيقة منبهة إلى قدرة هذه الحاسة بإرادة الله تعالى على أن تعمل في حال يقظة صاحبها أراد أن يسمع أو لم يرد. ومنبهة إلى تقدم هذه الحاسة غيرها في هذا المجال. بسبب القدرة العجيبة على العمل المستمر الواسع المدى وعدم قدرة صاحبها على التحكم فيها كي يحول بينها وبين أن تعمل، إلا بأن يسعى بالحيلـــولة بين أذنه وبين الصوت ذاته أن يصلها، وذلك بالابتعاد عن مكان الصوت ذاته. وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك حينما أمر المؤمنين في سورة الأنعام، بألا يقعد الواحد منهم بعد

الذكرى مع الذين يصرون على أن يخوضوا في آيات الله تعالى، بغير علم. قال الله تعالى [1]: ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون** ﴾.

وقد جاء في سورة النساء التحذير ذاته بشأن الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها في قوله تعالى [2]: ﴿ **وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. إنكم إذاً مثلهم، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾.

ومن لطيف صنع الله تعالى الذي جعل قدرة الأذن على السماع عجيبة أن الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم يظلون يسمعون دوياً. وقد أوحت هذه الحقيقة للمتنبي بالقول [3]:

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

حقاً إن وضع الأصابع في الآذان يحول بين المرء وبين سماع ما لا يريد سماعه ولكن سماعه لشيء آخر رغم إرادته دليل على قدرة هذه الحاسة الفائقة على العمل. جاء في هدية مجلة العربي عدد يناير ١٩٧٨ بشأن حاسة السمع «والمقارنة بين الحواس الخمس بالتجارب المعملية والملاحظات العلمية تضع

---

(١) سورة الأنعام ٦٨ ــ ٢٩ .

(٢) سورة النساء ١٤٠ .

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢ ــ ١٤٩ يقول : اترك في الدنيا جلبة وصياحاً عظيماً . وذلك أن الرجل إذا سد أذنه سمع ضجيجاً «العكبري» .

السمع في المرتبة الأولى رغم الشائع عن نعمة الإبصار فبالسمع وحده تعلمت البشرية قبل أن تعرف القراءة والكتابة والأطفال يتعلمون بالسمع قبل أن تستطيع حواسهم الأخرى أن تقدم لهم شيئاً من المعرفة وربما استطاع الإنسان أن يستغني ولو بصعوبة عن اللمس والشم والذوق وسيمكنه أن يتخيل الدنيا دون أن يراها ولكن المولود الأصم يعيش طيلة عمره غالباً في عزلة عن الحياة.

إن الحواس الخمس هي سبيل الإنسان لتكوين رصيده من المعرفة وهي أساس التفكير وتشغيل المخ وصدق الله العظيم القائل (١) ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾.

وإليك هذا الكلام الجميل الجليل عن دقة عمل الأذن في الملحق ذاته: «تتجمع الأصوات في صيوان الأذن وتسير في قناة الأذن الخارجية لتصل إلى غشاء طبلة الأذن وهو غشاء يهتز بالموجات الصوتية. فيحرك ثلاث عظمات. المطرقة فالسندان. فالركاب. وقد سميت كذلك تعبيراً عن الشكل الذي تأخذه كل منها والعظمات مركبة على بعضها بوضع هندسي عبقري يضمن توصيل الأصوات بالدرجة المثلى، وترتكز الركاب داخل ثقب في عظمة القوقعة (من شكلها أيضاً) يسمى الفتحة البيضاوية.

عظمة القوقعة عبارة عن أنبوبة واحدة التفت حول نفسها لتأخذ شكل القوقعة تجويفها ينقسم ثلاثة أقسام. في الأوسط غشاء حساس عليه شعيرات حساسة. تمر الموجات الصوتية من الفتحة البيضاوية إلى السائل الموجود في القسمين الأعلى والأسفل من أنبوبة القوقعة فتحرك الغشاء الحساس الذي تنبه حركته الشعيرات الحساسة لترسل إشارات عصبية إلى المخ».

---

(١) سورة النحل ٧٨ .

وبما أن المنافقين وقد غدا الإسلام قوة يحسب لها كل حساب لم يستطيعوا أن يضعوا أصابعهم في آذانهم على غرار فعل قوم نوح عليه السلام الذي أشار إليه قوله في سورة نوح [1]: ﴿ **وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً** ﴾ ولم يستطيعوا وقد غلبوا على أمرهم إلا أن يستمعوا للمصطفى ﷺ وهو يخطب المؤمنين في الجمعة وغير الجمعة. لذا فإن هذا الموقف من المنافقين معناه أن آذانهم تقوم بالوظيفة الأولى التي لا سلطة لهم عليها ولا قدرة لهم على دفعها وهي وظيفة السماع المجرد.

وبما أن الهدف من سماع سلاسل الدرر التي تتدفق من فيه ﷺ قرآناً كريماً وحديثاً نبوياً شريفاً أن ينتفع بها اعتقاداً وعبادة وأخلاقاً وسلوكاً ومعاملة. وبما أن كل ذلك مترتب على فهم ما«يقال وبما أن الفهم لما يقال لا يكتفى معه بالسماع المجرد إنما ينبغي أن يكون ثمة الاستعداد لذلك وبما أن المنافقين بطبعهم قوة طاردة لكل نفع لافظة لكل خير مبعدة لكل صلاح لذا فقد أعيت منافذهم كل خير حريص على أن يدري أين مخاتلهم وفي مقدمة هذه المنافذ أقدرها في مثل هذه الحال على العمل السريع الواسع المدى وهي الأذن. وبذلك حالوا بين آذانهم التي قامت بوظيفتها الأولى التي لا يستطيعون دفعها من سماع مجرد وبين أن تقوم بوظيفتها الثانية المهمة الرئيسية بأن تنقل معنى ما تسمع إلى الفؤاد فيؤمن ويخشع وإلى العقل فيعي ويتفكر.

إن هؤلاء المنافقين من جنس الكافرين وقد نصت الآية الكريمة على ذلك فبعد أن تحدثت عن الكافرين ضمن من تحدثت جاء النص على أن المنافقين جزء من الكافرين لا يتجزأ بجامع كفر النعم من الكافرين والمنافقين أما الكافرون فبسبب ضعف المؤمنين في مكة كانوا قادرين على أن يقوموا بذات

---

(١) آية ٧ .

العمل الذي قام به قوم نوح عليه السلام والذي أشار إليه قوله تعالى [1] ﴿ **قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً** ﴾ بل بلغ الأمر بالكافرين إلى القدرة على منع المؤمن من تلاوة القرآن الكريم جهراً. وتشاء العناية الإلهية أن تأمره ﷺ بطريقة وسط أثناء تلاوة القرآن الكريم تتيح للراغبين في سماع الذكر الحكيم الخائفين من بطش قريش أن يسمعوا وذلك بتركيز اهتمامهم وانتباههم لما يقرأ وأن يأمنوا بطش قومهم الذين لا يفقهون والذين يحرصون على أن يحولوا بين آذانهم وبين السماع مجرداً. جاء في سورة الإسراء [2] قوله تعالى: ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾.

وأما المنافقون فبسبب قوة المؤمنين الفائقة في المدينة المنورة ـ والمعروف أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ارتبطت دولته بدعوته ـ لم يكونوا قادرين على المواجهة العلنية. فلجأوا إلى مواجهة سلبية تعتمد على إبدائهم خلاف ما يكتمون، وإعلانهم خلاف ما يسرون قولاً وعملاً. فهم يعلنون أنهم مؤمنون بينما هم في حقيقة الأمر كافرون لنعم الله تعالى. إنهم وقفوا على الحق ومع ذلك لم يمكنوه من أنفسهم، وذلك بالحيلولة بينه وبين أن يتسلل إليهم من منافذه الطبيعية. وأولى هذه المنافذ الأذن التي سمعوا بها صوت الحق ولكنهم للحق كارهون ولفظوه لأن أنفسهم ممتلئة بالباطل والكفر. لقد نصت الجزئية الأولى في الآية الكريمة على سد هؤلاء المنافقين لهذا المنفذ الحيوي. إنهم في الشكل مستمعون له ﷺ ولكن قلوبهم حقيقية في صمم وبذلك ينطبق في حقهم قوله تعالى [3] ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا**

---

(١) سورة نوح ٥ ـ ٧ .
(٢) آية ١١٠ .
(٣) سورة الأعراف ١٩٨

يبصرون ﴾. وقوله [1]: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ وقال تعالى: [2] ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وقال تعالى: ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾.

وبما أن القوم قد حالوا بين آذانهم وبين أن تعمل عملاً صحيحاً لذا فإن كل كلام طيب يسيل بين شفتيه ﷺ لن يجد له أدنى صدى لدى هؤلاء القوم. وقد بين الشق التالي من الجزئية باعتراف القوم عدم إفادتهم من كل خير يسمعون. قال تعالى: ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً** ﴾: فما معنى **قال آنفاً**. «قال آنفاً كصاحب وكتف وقرىء بهما أي مذ ساعة أي في أول وقت يقرب منا» [3] وجاء في البحر المحيط [4]: «وآنفاً حال أي مبتدئاً أي ما القول الذي ائتنفه قبل انفصالنا عنه» و«قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته. والمعنى: ماذا قال في أول وقت يقرب منا» [5].

فهؤلاء المنافقون باعترافهم يسألون المؤمنين المتقين الذين كانوا معهم لتوهم بحضرة المصطفى ﷺ · ماذا قال اللحظة حينما كانوا عنده يحدثهم. ويلاحظ المدى البعيد لانصراف المنافقين عن سماع الحق باعترافهم بعدم الإفادة مما سمعوا قبيل وقت قصير جداً. إن الآية الكريمة تنص على قصر الزمن

---

(١) سورة الأعراف ١٩٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٣) القاموس المحيط «أنف» وانظر البحر المحيط ٨ ــ ٧٩ واللسان (أنف) .

(٤) ٨ ــ ٧٩ .

(٥) الكشاف ٣ ــ ١٣٠ .

دليلاً أكيداً على عدم استعداد القوم كلية لأن يستفيدوا، كيلا يظن أن الوقت طويل. ومن الجائز أن يكون سبباً معقولاً لنسيان ما قيل لهم. ومن الذين سئلوا عبد الله بن مسعود [1] وقال ابن عباس أنا منهم وقد سئلت فيمن سئل [2].

وتأمل الطريقة التي يسأل بها المنافقون المؤمنون: «ماذا قال آنفاً» إن سؤالهم عن القول ذاته يدل على ضعف همتهم وعلى أنهم لم يفهموا شيئاً مطلقاً فهم يسألون عن أبسط ملابسات القول أعني أبسط أنواع الفهم. وهذا الفهم البسيط هم بعيدون عنه كل البعد. لأنهم سمعوا قولاً لا معنى له في نظرهم. لأن كل ما يصدر عنه ﷺ من قرآن وحديث غير موافق لهواهم لذا فسؤالهم يدخل ضمن دائرة السماع المجرد المرغمين عليه. وهل القوم جادون في هذا السؤال . وهل قصدهم أن يستعينوا بآخرين على فهم ما سمعوا؟ لا إنهم ليسوا جادين لأنهم إذا لم يفهموا من أفصح الخلق ﷺ وأحرص الخلق على هدايتهم والذي أوتي جوامع الكلم، فكيف يفهمون عمن أخذ عن الرسول ﷺ الهداية والفهم [3]؟ وهذا دليل على أن القوم مستهزئون في سؤالهم وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن كل ما قيل لا يوافق هوانا إذن فهو كلام لا معنى له ولا فائدة تحته.

وإنا لنتبين من طريقة سؤال المنافقين للذين يخالفونهم في الموقف تماماً قلقاً نفسياً عجيباً. إنهم من ناحية يسألون في طريقة تجمع بين الاستهزاء وبين الأسى المرير وكأنهم يريدون أن يتلمسوا في جواب الآخرين الذين يتمنون في أعماقهم أن يكون موافقاً لما في أنفسهم متكأ يعتمدون عليه ومستنداً يتعزون به. وهم المنصرفون عن الحق. وكأن هذه الرغبة التي يتمنون أن تتحول واقعاً شيء يدخل على أنفسهم بعض الهدوء والاستقرار اللذين يفتقدون. ومن ناحية أخرى هم يسألون الذين أوتوا العلم ولا يسألون المنافقين أمثالهم لأنهم يعرفون

---

(١) الكشاف ٣ ــ ١٣٠ والبحر المحيط ٨ ــ ٧٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٢ وانظر تفسير القرطبي ص ٦٠٥٨ والكشاف ٣ ــ ١٣٠ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٦٠٥٨ والكشاف ٣ ــ ١٣٠ والبحر المحيط ٨ ــ ٧٩ .

جواب المنافقين الموافق لهواهم، بينما هم يريدون أن يعرفوا جواب الذين يخالفونهم إيماناً وعملاً. وهكذا يتبين شيء من القلق النفسي الذي فيه المنافقون إخوان الكافرين واليهود. يقول ابن تيمية [1]: «وذلك أن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ويبغضون من لا يوافقهم وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم. وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيراً ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم في أمورهم وشهواتهم. إما للمعاونة على ذلك كما في المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك. وإما لتلذذهم بالموافقة كما في المجتمعين على شرب خمر فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير، إما حسداً له على ذلك أو لئلا يعلو عليهم بذلك ويحمده الناس دونهم، أو لئلا يكون له عليهم حجة أو لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه أو بمن يرفع ذلك إليهم أو لئلا يكونوا تحت منته وخطره. ونحو ذلك من الأسباب. قال الله تعالى: ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾ [2]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾ [3]. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ودت الزانية لو زنى النساء كلهن».

إن هؤلاء المنافقين يتوجهون بالسؤال إلى هؤلاء المتقين المؤمنين الذين يعلمون أنهم مخالفون لهم كلية والذين يعلمون أنهم يستفيدون من العلم الذي يسمعون منه ﷺ. وهنا نتبين أن الآية الكريمة تعبر عن هؤلاء المؤمنين المتقين بأنهم قد أوتوا العلم بمعنى أن العلم الذي لديهم إنما هو هبة من الله تعالى لهم.

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٤٥ .

(٢) سورة البقرة ١٠٩ .

(٣) سورة النساء ٨٩ .

وقد علق القرطبي [1] على قول ابن عباس. أي كنت من الذين أوتوا العلم. وقيل إن السؤال كان لعموم الصحابة [2].

والذي جعل هؤلاء المؤمنين المتقين يؤتون العلم اللدني هو أن لديهم الاستعداد والحرص على أن يتعلموا ويعملوا بما علموا فآتاهم الله تعالى من فضله علماً لدنياً وهكذا يتبين أننا بصدد عون منه تعالى لهؤلاء المؤمنين المتقين الحريصين على أن يتعلموا وبصدد فضل منه تعالى بأن آتاهم جل وعلا من لدنه علماً لدنياً زيادة على العلم الذي اكتسبوه وتلقوه. وقد قال تعالى [3]: ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم** ﴾.

وما دمنا بصدد عون منه تعالى وفضل على المؤمنين المتقين الذين من صفاتهم العلم والعمل باعتبار العلم اللدني منه تعالى يشترط العمل بما علم الإنسان من علم نافع فمعنى هذا أننا نتوقع أن يحدث العكس بشأن المنافقين الذين هم السبب في كل ما حل بهم من جهل وعمى بصيرة لأنهم تعمدوا الإعراض عن الحق وتنكب الصراط المستقيم. إن الإقبال على الله تعالى من قبل المؤمنين المتقين لازمه عون منه جل وعلا وفضل عليهم. وإن الانصراف عنه جل وعلا من قبل المنافقين الجاحدين ينبغي أن يلازمه خذلان لهم منه تعالى، ومد لهم في طغيانهم يعمهون، وقد عبرت الجزئيتان التاليتان عن هذه المعاني في حق الكافرين. إن الجزئية الأولى بشقيها تعني ضمناً أن المؤمنين قد أحسنوا السمع في مقابل إساءة المنافقين السمع، وأنه جل وعلا قد أعان المؤمنين المتقين وخذل المنافقين الجاحدين. وإذا كان معروفاً أن منافذ العلم الذي يسبق الإيمان والعمل هي السمع والبصر وأن المنافقين قد أساءوا السمع

---

(١) تفسير القرطبي ٥٨ ــ ٦٠ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٦٠٥٨.

(٣) سورة البقرة ٢٨٢ .

بينما أحسنه المؤمنون فقد استقر السماع المفيد في قلوب المؤمنين المتقين أو في أفئدتهم وأن السماع المجرد وإن وجد منفذاً له خلال الأذن فلم يجد له مكاناً في قلب المنافقين والكافرين. فمن حقنا أن نتوقع حديثاً عن المنفذ الآخر الباقي وهو العين، والمستقر لكل من الأذن والعين وهو الفؤاد. ولا ننسى أن الحديث عن الهداية إذا كان في ظاهره عن العين المبصرة فالمراد به في جوهره الحديث عن البصيرة النيرة وغير النيرة وبما أن الأذن قد نالت حظها في الجزئية الأولى بشقيها كما مر بنا فمعنى ذلك أن من حقنا أن نتوقع حديثاً عن القلب وعن العين، وقد تم كل ذلك في أسلوب القرآن الكريم المعجز. هذا هو حظ قلب المنافق أو الفؤاد، قال تعالى: ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾. وهذا هو حظ العين أو البصيرة قال تعالى: ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾.

إن المنافقين قد عطلوا السمع عن وظيفته وقد زادهم الله تعالى وقراً إلى وقرهم، وقد عبر عن هذا المعنى في قوله تعالى على لسان الكافرين، والمنافقون جزء منهم [1] ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر** ﴾ وقوله تعالى [2]: ﴿ **ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً** ﴾ أما وقد عطل المنافقون السمع فلم تنتفع قلوبهم بما تسمع آذانهم، وبما أنه جل وعلا وقد زاد آذانهم أول منافذ الخير وقراً إلى وقرها، فمعنى هذا أن من حق منفذ العلم الآخر والمستقر أن يعاملا بالمثل. فبما أن المنافقين قد صرفوا قلوبهم عن الحق فقد زاد تعالى هذه القلوب انصرافاً. فإذا كان هؤلاء المنافقون قد أغلقوا قلوبهم فلا يستطيع صوت الحق وقد وصل عندها أن يتخللها وينفذ إليها فقد زاد جل وعلا هذه القلوب إلى انغلاقها من الخير انغلاقاً قال تعالى: ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ «والطبع الختم وهو التأثير في الطين ونحوه.. والطابع والطابع بالفتح والكسر الخاتم الذي

---

(١) سورة فصلت ٥ .

(٢) سورة الأنعام ٢٥ .

يختم به.. وطبع الله على قلبه ختم.. على المثل ويقال: طبع الله على قلوب الكافرين، نعوذ بالله منه، أي ختم فلا يعي وغطى ولا يوفق لخير. وقال أبو إسحاق النحوي: معنى طبع في اللغة وختم واحد وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء كما قال الله تعالى ﴿ **أم على قلوبٍ أقفالها** ﴾ وقال عز وجل: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم** ﴾. معناه غطى على قلوبهم. وكذلك طبع الله على قلوبهم. قال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطبع هو الرين. قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإقفال. والإقفال أشد من ذلك كله، هذا تفسير الطبع بإسكان الباء»[1]. ويبدو من استعمال الطبع في مناسبة غير مناسبة الرين الفرق الدقيق بينهما بحيث إنه يصح أن يقال إن الرين كان من نصيبهم بسبب سوء عملهم. وإن الطبع كان من نصيبهم لأنه جل وعلا زادهم من عنده ما استحقوا على الرين الذي كسبوه من قبل.

فإذا تحولنا إلى قوله تعالى: ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ استطعنا أن نقول إنها تشمل المنفذ الآخر للعلم وهو المتعلق هذه المرة بحاسة البصر التي يرتبط بها في حالة الإبصار الهداية. وفي حالة العمى الضلال. لقد عبرت الآية الكريمة عن طرد المنافقين لنور الهداية بالقول ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ والمعروف أن النور تتعامل معه العين أساساً وأن الهداية تتعامل معها البصيرة النيرة أساساً. فما الذي حصل من قبل هؤلاء المنافقين بعد أن عطلوا السمع عن عمله وحالوا بين صوت الحق وبين أن يسكن قلوبهم؟ لقد طردوا نور الهداية عن قلوبهم وأفئدتهم ونفوسهم فكأنهم بمثابة من أغمض عينيه بقصد أن يحول بينها وبين النور أن يتسلل إليها. أليس هؤلاء المنافقون قد سدوا السمع من قبل؟ بلى. وبما أن نور الهداية الذي شع من الأقوال التي تجري على لسانه ﷺ، قرآناً كريماً وحديثاً شريفاً، حيل بينه وبين أن يصل إلى القوم فكأنهم بمنزلة من أغمض

---

(١) لسان العرب «طبع».

عينيه كي يحول بين النور وبين أن يصلها. وبما أن نور الهداية قد حال القوم بينه وبين أن يصلهم، وبما أنه تبين أن رب العزة قد ختم على أسماعهم وأفئدتهم فمعنى هذا أنهم بمنزلة من وضع غشاوة على عينيه فهو لا يرى بعينيه النور الذي ينير له الطريق فتعطلت العين عن العمل وأظلمت بصيرته تبعاً لذلك. وبما أنه لم يتبع متعمداً نور القرآن الكريم ونور سيد المرسلين فمعنى هذا أنه سيتبع هواه حتماً وأنه يستحق أن يزداد عمى إلى عمى البصيرة الذي اختاره المنافق وآثره. إننا بصدد زيادة وقر إلى وقر وزيادة ختم قلب على ختم وزيادة عمى بصيرة إلى عمى. إن الأصم الذي لا يسمع مطلقاً لا يزداد صمماً إلى صمه وإن أعمى العينين لا يزداد عمى إلى عماه أما المعرض عن سماع الحق المنصرف عن نور الهداية فإنه هو الذي حرم فؤاده من برد اليقين وهو الذي يصح أن يقال في حقه: قد زيد وقراً إلى وقره وعمى إلى عماه لأن الوقر هنا وقر متعمد عن سماع صوت الحق ولأن العمى هنا عمى للبصيرة متعمد عن إبصار نور الحق. لقد كانت النتيجة أن طبع الله تعالى على قلوب هؤلاء المنافقين واتبعوا أهواءهم. وقد عبرت سورة البقرة عن هذه المعاني في حديثها عن الكافرين ومنهم المنافقون بنص آية سورة محمد لاشتراك الفريقين في كفر النعمة أي تغطيتها قال تعالى[1]: ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾. وجاء في سورة محمد عن هؤلاء المنافقين قوله تعالى: ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾.

وهكذا يتبين أن ما يعتبر منفذاً للهداية الذي أغلقه المنافقون قد شاءت العناية الإلهية أن تحكم إغلاقه. لقد ختم الله تعالى على قلوبهم وعلى سمعهم.

---

(١) سورة البقرة ٧ .

أما البصيرة فقد عرفنا أنهم عطلوها عن العمل فحيل بينهم وبين نور الهداية فهم بمنزلة من وضعت غشاوة على عينه فهو لا يبصر كما يتبين أن اتباع القوم لأهوائهم كان منهم ابتداء، وأن اتباع المنافقين لأهوائهم كان على غرار اتباع الكافرين لأهوائهم. فقد جاء عن الكافرين من قبل القول ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**﴾. وكيف لا يكون الأمر كذلك وإن المنافقين جزء لا يتجزأ من الكافرين فقد قال تعالى عن المنافقين إثر الحديث عن الكافرين في صدر الآية الكريمة: ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾.

أما وقد كان من نصيب المنافقين زيادة منه جل وعلا إلى الضلال الذي هم سائرون فيه. فإنا نود أن نعرف ما هو نصيب المؤمنين المتقين العاملين للصالحات المجاهدين في سبيل الله تعالى والذين أوتوا العلم. جاء في الآية الكريمة التالية قوله تعالى: ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾.

إننا في حقيقة الأمر بصدد صفة ذات علاقة بما جاء في الآية الخامسة من السورة الكريمة أثناء الحديث عن الذين قتلوا في سبيل الله. قال تعالى: ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ إننا بصدد زيادة مستمرة في الخيرات بشأن هؤلاء المؤمنين المتقين. فهم بعد أن هداهم الله تعالى إلى الإيمان كان منهم إقبال على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ تمثل في الإيمان وعمل الصالحات وكان منه جل وعلا تسديد لخطى العاملين المجاهدين في سبيله تعالى. وكلما انتهوا بتوفيق الله تعالى ثم باجتهادهم إلى درجة من الهداية كان منه جل وعلا زيادة هداية لهم بأن تشملهم دائماً وأبداً رعاية الله تعالى واحتفاؤه بهم. وإذا كانوا من ذي قبل قد تفضل الله تعالى عليهم بالعلم اللدني فإنه جل وعلا يلهمهم تقواه ويمكنهم منها بمعنى أن خشية الله تعالى تملك عليهم كل جوانب أنفسهم فهم يرقبون الله تعالى راجين رضاه خائفين من غضبه وسخطه بشأن كل ما يصدر عنهم من قول أو فعل «والزيادة في هذا المعنى تكون بزيادة التفهيم والأدلة أو بورود الشرع

بالأمر والنهي والإخبار فيزيد المهدي لزيادة علم ذلك والإيمان به»[1] «وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان. رجل عقل عن الله فانتفع بما سمع ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع وكان يقال الناس ثلاثة: فسامع عامل وسامع عاقل وسامع غافل تارك»[2].

ويلاحظ أن الخير الذي هو من نصيب المؤمنين والذي تنص عليه الآية الكريمة أخذ في الزيادة المطردة فنحن أولاً بصدد الهداية التي وضع المتقون بعون من الله تعالى بذورها والتي زادهم الله تعالى منها ما شاء أن يزيد. ونحن بعد ذلك بصدد التقوى التي يمنحها الله تعالى تكرماً منه وفضلاً هؤلاء المتقين الذين وضعوا بذورها من ذي قبل كذلك على نحو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون** ﴾ إن العلم اللدني هبة من الله تعالى، وإن التقوى هبة من الله تعالى كذلك. وتأمل تعبير الآية الكريمة عن هبة التقوى ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ الذي يشعر بأن هذه التقوى أصبحت حقاً خالصاً لهم والذي يشعر كذلك بأن لهم دوراً إيجابياً في الوصول إلى هذه المرتبة الرفيعة العالية التي منحها الله تعالى إياهم بعد أن تجاوزوا بنجاح العديد من مراحل الاختبار من إيمان وعلم وعمل صالح يأخذ في الاتجاه صعداً حتى يصل إلى ذروة سنام الإيمان وهي مرتبة الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس. قال تعالى: ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم،** ﴾ وجاء في القاموس[3]: « وآتى إليه الشيء ساقه. وفلاناً شيئاً أعطاه إياه. وفلاناً جازاه» يقول ابن كثير بشأن زيادة الهدى[4]: «أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها، وزادهم منها. وآتاهم تقواهم أي ألهمهم رشدهم».

---

(١) البحر المحيط ٨ ــ ٧٩ .
(٢) تفسير القرطبي ٦٠٥٩.
(٣) «أتى» .
(٤) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٧٧ .

وفي ضوء المقارنة بين حظِّ المنافقين ـ وكذلك الكافرين ـ من الضلال الذي زيد في حقهم وبين حظ المتقين من الهداية التي زيدت في حقهم كذلك، يتبين الطريقان المختلفان اللذان يسير في أحدهما المتقون وفي ثانيهما المنافقون والكافرون. بحيث إننا نستطيع أن نفهم أنهما لا يمكن أن يلتقيا بحال من الأحوال لأن أولهما يتجه ذات اليمين وثانيهما يتجه ذات الشمال. ولا يمكن لمن سار يميناً أو أماماً أن يلتقي به من سار شمالاً أو خلفاً. وإن نهاية الطريق معروفة في حق كل من المؤمنين والمنافقين. ومن حق المؤمنين بل من واجبهم أن يضاعفوا من جهودهم. ولكن ما الذي يمكن أن يقال للمنافقين وللكافرين إخوانهم الذين يسيرون في طريق الخاطىء مستمرئين للسير مجتهدين فيه؟ إن الجواب على هذه الأسئلة في الآية الكريمة التالية. قال تعالى: **﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾**.

وأول ما نود الوقوف عنده هو الفرق المعنوي الذي يمكن أن يفهم بين كل من جملة أتى وجملة جاء في القرآن الكريم وهذه النتيجة تقول إنه باستعراض استعمالات القرآن الكريم لهاتين الجملتين تبين أن جملة أتى لا تستعمل إلا دليلاً على البعد سواء أكان زمانياً أم مكانياً أم نفسياً (معنوياً) وأن جملة جاء لا تستعمل إلا دليلاً على القرب سواء كان زمنياً أم مكانياً أم نفسياً (معنوياً)[1]. إن الآية الكريمة تجمع بين الجملتين معاً وبذلك يسهل إدراك الفروق بينهما. ويبدو شيء من الفرق بمحاولة تبيين معنى الآية الكريمة ابتداء. إنها تتحدث عن المنافقين وكذلك عن الكافرين مستفهمة في إنكار: هل ينتظر القوم هم ومن شاكلهم وقد أعرضوا عن الحق وتنكبوا صراط العزيز الحميد إلا الساعة أن تأتيهم بغتة إن الساعة آتية لا ريب فيها ولكن القوم مستبعدون إياها منكرون

---

(١) وضحنا جوانب هذه النظرية في كتابنا تأملات في سورة الحاقة بشأن قوله تعالى: **﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾** (في الصفحات ٤٩ ـ ٥٩).

لها وهي لا تأتي إلا فجأة دون سابق استئذان وعلى غفلة من اللاهين العابثين المستبعدين لها، غير المستعدين من أجلها. إنها حين تجيء فعلاً لا تجيء إلا بغتة أي وهم غافلون عنها ﴿أن تأتيهم بغتة﴾، أن بدل اشتمال من الساعة نحو قوله أن تطئوهم من قوله ﴿رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾[1] ومعروف أن بدل الاشتمال هو الدال على معنى في متبوعه [2].

ومع أن الساعة لا تجيء إلا فجأة فقد شاء ت العناية الإلهية أن تسبقها أشراطها أي علاماتها، والأشراط العلامات واحدها شرط بسكون الراء وبفتحها[3] وأصله الإعلام. ومنه قيل: الشُّرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها [4]. إن أشراط الساعة قد جاءت فعلاً. وهي مؤذنة بقرب مجيء الساعة فعلاً. لأن كل آت قريب ولأن من مات كأنه قد قامت قيامته. «فمن أي وجه لهؤلاء المكذبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة. يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا وقت استعمال»[5]. «وأنى تكون بمعنى أين ومتى وكيف. وهي من الظروف التي يجازى بها»[6].

وبعد هذه النظرة الأولى للآية الكريمة تلك النظرة التي انطلقت من مفتاحها أعني جملة أتى وجاء والفروق الدقيقة بينهما نود أن نردفها بنظرة أخرى معمقة للأولى.

إننا بصدد استفهام إنكاري على اللاهين العابثين المستهزئين المستخفين

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٠٦١ والجزئية من الآية الكريمة رقم ٢٥ من سورة الفتح.
(٢) شرح ابن عقيل ٢ ــ ١٩٤.
(٣) البحر المحيط ٨ ــ ٧٠.
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٠٦٠.
(٥) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٤.
(٦) القاموس المحيط «أنى».

المنكرين المكذبين في كل زمان ومكان. إنهم بعبثهم واستخفافهم ولهوهم ولعبهم هل ينتظرون شيئاً آخر يستحق في نظرهم أن يخلقوا من أجله سوى يوم القيامة الذي لا يؤمنون به هم وأمثالهم ولا يعملون من أجله؟ إنهم يستبعدون ذلك اليوم استبعاداً تاماً. وقد أوحي بهذا الاستبعاد موقفهم والقول: ﴿**أن تأتيهم**﴾ وإن من سمات الساعة التي تضع نهاية للحياة الأولى وبداية للحياة الثانية أنها لا تأتي إلا فجأة وذلك في هيئة الصيحة المرعبة التي يرفعها بإرادة الله تعالى إسرافيل عليه السلام والتي تميت الخلائق إلا من شاء الله تعالى من الملائكة والحور العين والولدان. وقد أشارت سورة يس إلى هذه الصيحة الأولى. قال تعالى[1]: ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون**﴾. لقد أوحت جملة أتى من القول ﴿**أن تأتيهم**﴾ بحقيقة شعور هؤلاء اللاهين المكذبين من استبعادهم التام ليوم القيامة. وأوحى القول ﴿**بغتة**﴾ بالطبيعة المفاجئة ليوم القيامة حيث شاءت إرادة الله تعالى للساعة حينما تجيء أن تبغت الناس وتفجأهم بوضع حد لنهاية الحياة الأولى كي تبدأ الحياة الثانية حياة الجزاء، الثواب أو العقاب.

وهكذا نلاحظ أن هذا الاستفهام الإنكاري في الآية الكريمة ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة**﴾؟ يجمع بين الإنكار على القوم استبعادهم ليوم القيامة وبين إعطائهم الملابسة الحقيقية لقدومه إذ لا يجيء إلا فجأة، والإنكار عليهم في لهوهم ولعبهم وقتلهم للوقت أن يكون هناك شيء آخر ينتظرون أولى من يوم القيامة الذي ينبغي لهم أن يعدوا العدة له فبدلاً من اللهو والعبث عليهم بالجد والعمل الطيب الصالح. وبدلاً من الاستهراء والاستخفاف عليهم بأخذ الأمور مأخذ الجد وبالحيطة والحذر وعدم الغفلة. وبدلاً من الإنكار والتكذيب عليهم بالتصديق والإيمان. إن يوم القيامة الذي

---

(١) سورة يس ٤٨ ــ ٥٠ .

يستبعدون وبالتالي لا يستعدون له هو الذي ينبغي أن يؤمنوا به ويعملوا من أجله.

إن الذي ينبغي أن ينتظر هؤلاء المنافقون والكافرون هو الساعة التي تجيء بغتة فكيف يحق لهؤلاء أن ينتظروا أي شيء غير الساعة وقد جاءت علامات هذه الساعة. قال تعالى: ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها**﴾. وينبغي أن نلاحظ دور الفاء هنا الذي يدل على الترتيب فالتعقيب. إن هذا القول فصل وليس بالهزل وليس متعلقاً بالمجهول بل بالمعلوم لأن العلامات التي تدل على قيام الساعة قد وقعت فعلاً. ومن هذه الأشراط بعثة المصطفى ﷺ نفسه وانشقاق القمر والدخان. جاء في صحيح البخاري عن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1]. وروي عنه ﷺ أنه قال: أنا من أشراط الساعة وقد بعثت أنا والساعة كفرسي رهان[2]. وجاء بشأن انشقاق القمر قوله تعالى[3]: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ أي انفلق فلقتين على أبي قبيس وقعيقعان[4] آية له ﷺ. وقد سئلها فقال اشهدوا رواه الشيخان»[5].

وجاء بشأن الدخان قوله تعالى[6]: ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشي الناس هذا عذاب أليم**﴾ «فأجدبت الأرض واشتد بهم[7] الجوع إلى أن رأوا من شدته كهيئة الدخان بين السماء والأرض»[8].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٧٧ .
(٢) انظر البحر المحيط ٨ ــ ٨٠ .
(٣) سورة القمر ١ ..
(٤) جبلان بمكة متقابلان بينهما المسجد الحرام .
(٥) تفسير الجلالين .
(٦) سورة الدخان ١٠ ، ١١ .
(٧) بأهل مكة .
(٨) تفسير الجلالين .

ويلاحظ أن الفعل ﴿جاء﴾ هو الذي يستعمل بشأن مجيء علامات الساعة وقد عرفنا أن الفعل جاء يرتبط به القرب فهذه الآيات الدالة على قيام الساعة قد وقعت فعلاً. قال تعالى ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ وهو قول معمق للإنكار على القوم غفلتهم عن الساعة وعن تحقيق الهدف الذي من أجله خلقوا بأن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له بينما طلائع الساعة قد رأوها ويراها الخلائق رأي العين وبخاصة معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين القرآن الكريم كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية وسنة المصطفى ﷺ التي أوتيها هي والقرآن المجيد.

وبما أن طلائع الأمر القادم قد ظهرت فذلك معناه أن الأمر ذاته على وشك الوقوع ومع هذا فإن المنافقين والكافرين في غيهم سادرون فما العمل الذي يمكن أن يقوموا به لتصحيح أخطائهم ، إذا ما جاءت الساعة بغتة وفات الأوان؟ لا شيء. وإلى ذلك أشارت الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة التي تبدأ بحرف الفاء ذاته قال تعالى: ﴿**فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ إننا ما زلنا بصدد الاستفهام الإنكاري لأن هؤلاء المنافقين والكافرين الذين يوجدون في كل العصور حينما يستمرون في لهوهم ولعبهم وتكذيبهم وإنكارهم فمعنى هذا أنهم صفر من كل خير لأن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ولأن الأعمال الطيبة مع الشرك قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً. ومعنى هذا أن الساعة التي جاءت علاماتها حينما تجيء بغتة سيكون القوم على حالهم من اللعب والتكذيب. فأنى لهؤلاء القوم ذكراهم. قال تعالى: ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾. والمعنى أن الذكرى بعيدة عن القوم كل البعد فالمعروف أن«أنى»يرتبط بها البعد لأن ذلك الوقت ، بداية وقت الجزاء الذي يعني بداهة انتهاء وقت العمل. إن الجزئية الكريمة وقد اشتملت مرات ثلاثاً على ضمير جماعة الغائبين، العائد على المنافقين والكفار تجمع بين الإشارة إلى قيام الساعة فعلاً باستعمال الفعل جاء، الذي يدل على

القرب وعلى وقوع الحدث فعلاً، وبين الإشارة إلى البعد البين لنفع الذكرى. إن الذكرى بمعنى التذكر بعيدة كل البعد عن القوم. فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة التي تهمهم بصفة خاصة لأن غيرهم استعد لها بعون من الله تعالى وتوفيق من أي وجه لهؤلاء المكذبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله[1] إن لسان حال الاستفهام في الجزئية الأخيرة: ﴿**فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ يقول: «ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال»[2]. «وذكراهم ابتداء، وأنى لهم الخبر. والضمير المرفوع في جاءتهم للسّاعة. التقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة. قال معناه قتادة وغيره وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة»[3]. ويقول أبو حيان في البحر[4]: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم. الظاهر أن المعنى فكيف لهم الذكرى والعمل بها إذا جاءتهم الساعة أي قد فاتها ذلك».

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الأخيرة في القسم قال تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم**﴾ تبين أنها على غرار الآية الكريمة الثانية في القسم من نصيب المتقين بقيادة خير خلق الله تعالى كلهم محمد بن عبد الله ﷺ وذلك في مقابل الآيتين الكريمتين الأولى والثالثة الخاصتين بالمنافقين ومن في حكمهم.

وبما أن الآية الكريمة السابقة الخاصة بالمؤمنين المتقين قد أشارت إلى اهتداء هؤلاء المؤمنين، حيث قد أقبلوا على الله تعالى بآذان صاغية وقلوب واعية وعيون مبصرة، وهذه هي مقومات الهداية، وقد زادهم الله تعالى إلى هداهم

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٤ .
(٢) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٤ .
(٣) تفسير القرطبي ٦٠٦١ .
(٤) ٨ ــ ٨٠ .

هدى ورزقهم من لدنه خشيته جل وعلا ، فإن هذه الآية الكريمة تشير إلى أهم دعامة تبني عليها الهداية بل الإسلام فضلاً عن الإيمان والإحسان ألا وهي شهادة أن لا إله إلا الله. كما تشير إلى أنه ينبغي على كل مؤمن وفي مقدمتهم خير خلق الله تعالى ﷺ أن يستغفر الله تعالى لذنبه، ومعروف أنه ﷺ قد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات. ووراء ذلك كله، على كل أن يعلم أنّ الله تعالى معه وأنه لا يخفى على الله تعالى خافيه فعليه أن يراقب الله تعالى حينما يبصره النهار بعينيه فيتقلب في الأمكنة المختلفة وحينما يغمض الليل عليه عينيه ويأوي إلى مثواه أو مضجعه. إن الله جل وعلا عالم بكل ما يصدر عن هذا الإنسان من قول أو فعل وما يجول في نفسه من أحاسيس، وما يخطر بباله من معان. فعلى هذا الإنسان أن يتصرف في ضوء العلم بأن الله تعالى يراه. ليكن دائماً في أحسن الأحوال التي يحب أن يراه الله تعالى عليها. قال تعالى: **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾**.

إن الجزئية الكريمة الأولى: **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾** تشير إلى هذه القاعدة التي لا يقوم بدونها في الإسلام بناء. إنها شهادة أن لا إله إلا الله ويرتبط بها بطبيعة الحال كظلها الشق الثاني من الشهادة أعني شهادة أن محمداً رسول الله. والملاحظ أن الآية الكريمة تبدأ بالقول **﴿فاعلم﴾** ومع أن الخطاب موجه أساساً إلى المصطفى ﷺ، فمن حق كل مسلم بل من واجب كل إنسان أن يعلم هذه الحقيقة. ونحن نود أن نلفت الانتباه إلى القيمة الجليلة للعلم الصحيح والتي تفهم من القول: **﴿فاعلم﴾** عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به: **﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله واستغفرلذنبك﴾**، فأمر بالعمل بعد العلم[1] ومعروف أن العلم الحقيقي يرتبط به معرفة الحق واتباعه وكشف الباطل وافتضاحه. إن لفظة العلم ناصعة

(١) تفسير القرطبي ٦٠٦٢ .

البياض، نقية الدلالة على إدراك المعنى أو الشيء على حقيقته دون أن يشوبها شيء من قتر أو قذى. وإن هذا العلم الذي تلك صفته تريد الجزئية الكريمة من المؤمنين ابتداء أن يكونوا في درجة اليقين بأنه لا إله إلاَّ الله.

إن شهادة لا إله إلا الله حينما تنبع من أعماق قلب من آتاه الله تعالى تقواه فإنها تحمل في ثناياها من المعاني ما يعجز عن الإحاطة به كل قلم. ولا يجد من حاول التعبير عن بعض تلك المعاني شفاء لغليله إلا في مثل تعريف المصطفى ﷺ للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وكيف لا ينتهي كل ذي بصيرة نيرة وفكر سليم إلى أنه لا إله إلا الله تعالى وأن كل شيء في هذا الوجود من أكبر الموجودات كالأجرام السماوية إلى أصغرها كالذرة تدل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[1]

أما وقد وصل المؤمن إلى هذه الدرجة من العلم الصحيح وصدر عنه بتوفيق الله تعالى العمل الصحيح فينبغي على هذا المؤمن أن يكون دائماً وأبداً، أشد الناس حذراً. عليه أن يستعين بالله تعالى ويستهديه ويسأله أن يسدد خطاه وينير له السبيل. عليه أن يتوكل على الله تعالى وحده لا شريك له الحي الذي لا يموت وأن يسبح بحمده، وألا يغفل عن كل ذلك طرفة عين بل عليه أن يستغفر الله تعالى دائماً وأبداً. وهل يليق بالمؤمن أن يزايله الاستغفار لحظة من اللحظات، وإن القرآن الكريم يأمر المصطفى ﷺ خير خلق الله تعالى كلهم بأن يستغفر الله تعالى من ذنبه. تنبه أخي المسلم إلى أنّ رب العزة يأمر المصطفى ﷺ بأن يستغفر الله تعالى من ذنبه وأي ذنب عليه ﷺ وهو الذي قال الله تعالى في حقه[2]: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك**

(١) تفسير ابن كثير ١ ــ ٢٤ .
(٢) سورة الفتح ١ ــ ٣ .

وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً. وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ إن هذا الدرس القرآني موجه إلى أمته ﷺ في هيئة مخاطبته ﷺ وهو النبي المعصوم بأن يستغفر الله تعالى لذنبه هو، هكذا بصريح لفظ الذنب ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ بقصد أن يتواضع المؤمن ويهضم نفسه حقها ويروضها على ذل الطاعة لله تعالى وألا يتيح لها طرفة عين أن تفرح فرح أشر وبطر وفخر بالطاعة. وإن المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة ليضرب لنا المثل الأعلى في الحذر وعدم الغفلة وفي التواضع وهضم النفس حقها وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت. وفي الصحيح أنه قال: يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1]. «وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما فإن إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالإغواء فهم يحسبون أنهم مهتدون»[2]. والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً[3].

والمعروف أنه ﷺ وهو الذي غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه[4] فقالت له السيدة عائشة رضي الله تعالى: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٧٨ .

(٤) تتفطر قدماه أي تتشقق قدماه .

تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً[1]. عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى فأنزل الله: ﴿ **طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾[2] وعن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل حتى نزلت: ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل. رواه مسلم[3]. ويقول الزمخشري[4]: «إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك» ويقول القرطبي بشأن الأمر بالاستغفار للمؤمنين[5]: أي ولذنوبهم وهذا أمر بالشفاعة. وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبدالله بن سرجس المخزومي قال: أتيت النبي ﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله غفر الله لك! فقال له صاحبي هل استغفر لك النبي ﷺ قال: نعم. ولك. ثم تلا هذه الآية ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾. ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه جمعاً[6] عليه خيلان كأنه الثآليل».

لقد عرفنا أن من أهم تعاليم الإسلام التي ينبغي أن تصحح بها التعاليم الفاسدة التي تسربت إلى الديانات السماوية الأخرى أن المرء عبارة عن صفحة

---

(١) رياض الصالحين ص ٦١ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول ص ١٤٦ .

(٣) رياض الصالحين ص ٥٥ والمقاربة القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير . والسداد (بفتح السين) الاستقامة والإصابة ويتغمدني يلبسني ويسترني قال العلماء معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى . قالوا : وهي من جوامع الكلم وهي نظام الأمور وبالله التوفيق . رياض الصالحين .

(٤) الكشاف ٣ ــ ١٣١ .

(٥) تفسير القرطبي ص ٦٠٥٢.

(٦) يريد مثل جمع الكف وهو أن يجمع الأصابع ويضمها .

بيضاء أساساً وأن هذه الصفحة البيضاء من الجائز أن تكون كذلك وأن تبقى دائماً على تلك الحالة بعمل الصالحات وبالاستغفار وبالتوبة النصوح. وإن القرآن الكريم وتعاليم سيد المرسلين تريد لنا أن نكون دائماً وأبداً صحائف نقية ناصعة البياض.

ومن الطبيعي أن تختلف مواقف البشر من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد فهناك المؤمنون وهم على درجات وهناك الكافرون والمنافقون وإن الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة تلفت انتباه البشر عموماً وفي مقدمتهم المؤمنون إلى أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالهم وأفعالهم في كل زمان ومكان قال تعالى: ﴿ **والله يعلم متقلبكم ومثواكم** ﴾ وما زلنا بصدد صفة العلم ذات المدلول الناصع البياض الواضح الصفاء والمعروف أن التقلب بمعنى التحول والتنقل من مكان لآخر. يقال: «وتقلب في الأمور وفي البلاد تصرف فيها كيف شاء. وفي التنزيل العزيز: ﴿ **فلا يغررك تقلبهم في البلاد** ﴾ معناه قد يغررك سلامتهم في تصرفهم فيها فإن عاقبة أمرهم الهلاك. ورجل قلّب يتقلب كيف شاء. وتقلب ظهراً لبطن وجنباً لجنب تحوّل[1].

ومعروف أن التقلب والحركة إنما يكونان في العادة نهاراً وأن الثواء والسكن إنما يكونان ليلاً. وكأن القول ﴿ **والله يعلم متقلبكم ومثواكم** ﴾ ينبه البشر إلى أن كل ما يفعلونه في نور النهار وظلام الليل وما يقولونه جهراً وسراً لا يخفى شيء منه في حقه جل وعلا. على كل إنسان أن يعرف هذه الحقيقة جيداً فلا ينبغي أن يظن أنه يستطيع أن يعمل في سواد الليل السوء الذي قد لا يستطيع عمله في النهار لأنه في الليل بمأمن من الناس بسبب آية الليل الممحوة بإرادة الله تعالى. إن الواجب على الإنسان أن يخشى الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من قوله وفعله ليلاً ونهاراً ووقتها لا يصدر منه بعون الله تعالى إلا ما

---

(١) اللسان «قلب».

يسر به يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. يقول الطبري [1]: «يقول فإن الله يعلم متصرفكم فيما تتصرفون فيه في يقظتكم من الأعمال ومثواكم إذا ثويتم إلى مضاجعكم للنوم ليلاً لا يخفى عليه شيء من ذلك وهو مجازيكم على جميع ذلك» ويقول الزمخشري [2]: «والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم. . . . ومثله حقيق بأن يخشى ويتقي وأن يستغفر ويسترحم» وإن هذه الجزئية الكريمة تأخذ بسبب من قوله تعالى في سورة الأنعام [3]: ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾. وبسبب من قوله تعالى في سورة الرعد [4] ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٤ .
(٢) الكشاف ٣ ــ ١٣١ .
(٣) آية ٦٠ .
(٤) آية ١٠ ، ١١ .

القِسمُ الخامِس

المؤمنون شجعان والمنافقون جبناء

وحثّ على تدبّر القرآن

قال تعالى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سوة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم، طاعة وقول معروف. فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم. فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾.

نبدأ مستعينين الله تعالى بدراسة الآيتين الكريمتين الأوليين. قال تعالى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف. فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾.

إن المؤمنين المتقين يتملكهم شعوران دافقان. أولهما هو الشعور بأن عليهم في سبيل نشر هذا الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده الكثير من الواجبات التي يتمنون من الأعماق أن يتمكنوا من القيام بها، وأن لديهم الاستعداد لأن يبذلوا من أجل ذلك كل ما يملكون بما في ذلك الأرواح التي هم

مستعدون لبذلها رخيصة في سبيل الله تعالى. وثانيهما الشعور في الأعماق، وهذا وليد الحماس والغيرة الشديدة على هذا الدين، بأن خصوم هذا الدين يقفون في طريقه حجر عثرة وأن هؤلاء الخصوم وهم قوة لا يستهان بها لا يترددون في استعمال هذه القوة لضرب هذا الدين في الصميم، لذا هم أحرص الناس على أن يقابلوا تلك القوة بالقوة، خاصة وهم بدافع الإيمان، قبل أي دافع آخر من عدد وعدة يأنسون في أنفسهم القدرة مستعينين الله تعالى على دفع هذا الباطل ودحره. وفي يقينهم أن الشر لا يدفع إلا بالشر خاصة وأن الخير قد جرب حظه مع هؤلاء الكافرين في مكة مدة ثلاثة عشر عاماً، ولكنهم آثروا الشر الذي ظل يطارد المسلمين بقصد أن يستأصل شأفتهم. فما موقف هؤلاء المؤمنين المتقين القادرين على البطش ـ والرسول الكريم بين ظهـرانيهم ـ من هؤلاء الخصوم؟ هل استبدوا بالرأي مدفوعين بالشعلة الإيمانية ممتطين حماسهم العقدي؟ هل كان من جانبهم رأي واحد أطل برأسه كي يطرح على بساط البحث والمناقشة والمناظرة وكلهم تلاميذ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذين لا يأتمرون إلا بأمره ولا ينتهون إلا بنهيه؟ لم يكن شيء من ذلك. وهنا نبادر بالقول: وأين ثمرة منهج النبوة التربوي الذي تعهد لفترة طويلة بالغرس والعناية الإلهية والإيمانية تلك البذور منذ فجرها الباكر قبل الهجرة، حتى غدت في المدينة المنورة دوحاً راسخ الجذور غليظ السوق ممتد الأفنان وارف الظلال شهي الثمار؟ ما الذي ينتظر من أولئك المؤمنين المتقين الذين لا يعرفون سوى لبان الطاعة لنبيهم ﷺ ، وقد غذى به إيمانهم منذ نعومة أظفاره، فكانوا كلهم طاعة له ﷺ في صبرهم على البلاء وضبطهم لأعصابهم حيث لم يؤذن لهم بعد في دفع الأذى عن أنفسهم، وهجرتهم الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرتهم أخيراً إلى المدينة المنورة. إن الذي ينتظر من هؤلاء الذين اهتدوا والذين زادهم الله تعالى هدى وآتاهم تقواهم أن ينتظروا الإذن من الله تعالى بواسطة حبيبه المصطفى ﷺ في أن يفعلوا ما يتمنون من خضد بالقوة لشوكة الكافرين. وليس

بخافٍ أن ذلك يتطلب الكثير من التضحيات وفي مقدمتها بذل المهج والأرواح.

وإن الآية الكريمة لتشير إلى ما يتمنى هؤلاء المؤمنون المتقون من الإذن لهم بالعمل الذي يقدمون عن طريقه للدين الذي رضي الله تعالى لعباده كل غالٍ. وفي مقدمة ذلك أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى أعني الإذن بجهاد الكافرين. قال تعالى: ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة** ﴾.

ونحن من جانبنا نود أن نتأمل هذه الجزئية الكريمة التي تشير إلى استعجال المؤمنين المتقين للإذن لهم بأن يبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى وإلى تشوقهم للوحي ذاته الذي يجدون فيه شفاء لما في الصدور.

ونود أن نقف ابتداء عند جملة «يقول» التي تصدر بها الآية الكريمة ﴿ **ويقول الذين آمنوا** ﴾ إنها كما هو واضح تجيء في صيغة الفعل المضارع ومعروف أن هذه الصيغة تنسحب على كل من الحاضر والمستقبل وهم امتداد في الحقيقة للماضي وقد قلت من قصيدة:

فوجه اليوم للأمس انعكاس وقد دلا على الغد فاستنارا

إن هؤلاء المؤمنين المتقين شعلة من الحماس لتلقي أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم وتقديم أسمى آيات الطاعة والتضحيات. إنهم دائماً هكذا ومن أهم الأدلة على ذلك طلبهم المستمر أن ينزل على الرسول الكريم قرآن مجيد يبين لهم وجه المعاملة لهؤلاء الكافرين الذين لا يزدادون بمرور الأيام إلا تمادياً في الشر.

والجزئية الكريمة تصف هؤلاء القائلين بأنهم مؤمنون ﴿**ويقول الذين آمنوا**﴾ على الرغم من أن السورة الكريمة قد خلعت على المؤمنين هؤلاء العديد من النعوت، من عمل الصالحات والإيمان بما نزل على محمد واتباعهم للحق وبأن الله تعالى مولاهم وبأنهم أصحاب الجنة وعلى بينة من ربهم وبأنهم أوتوا العلم

وزادهم الله تعالى هدى وآتاهم تقواهم . ولكن بما أن الإيمان بالله تعالى هو الأساس لكل النعوت لذا خصت الجزئية الكريمة هذه الحقيقة بالذكر.

وتأمل الأداة «لولا» التي تدل على التحضيض والاستحثاث. وقد جرت على ألسنة هؤلاء المؤمنين الذين يستعجلون نزول سورة من القرآن الكريم تشفي صدورهم مما تجد على الكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى. ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة** ﴾. ويلاحظ بعد همة هؤلاء المؤمنين المتقين في استعجالهم أن تنزل سورة كاملة من القرآن الكريم تبين الرأي في معاملة هؤلاء الكافرين. إن همتهم العالية تتشوق لنزول الجزء من القرآن الكريم الكافي حسب اعتقادهم لأن يوضح أبعاد القضية من جوانبها المتعددة والشافي لأنفسهم مما تجد. ويعتبر طلب هؤلاء المؤمنين سورة من القرآن الكريم الدليل العملي التطبيقي على ما نصت عليه السورة الكريمة من ذي قبل بأن هؤلاء المؤمنين يؤمنون بما نزل على محمد ﷺ . وتعتبر هذه الحقيقة سبباً إضافياً للحكمة من وصف المجاهدين بأنهم الذين آمنوا.

ونستطيع أن نفهم من وصف السورة الكريمة ـ التي أنزلت بعد ذلك ـ بأنها محكمة وليست من المتشابه من القرآن الكريم أو المنسوخ. إن هذه إحدى صفات السورة التي يتمنى نزولها المؤمنون المتقون كيلا يكون ثمة مجال للذين في قلوبهم زيغ أن يؤولوها على غير وجهها. وقد جاء في سورة آل عمران المدنية والتي نزلت بعد الأنفال التي تتحدث عن يوم بدر. وقبيل سورة محمد عليه السلام [1] قوله تعالى [2] ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾.

(١) انظر مثلاً الإتقان ١ ــ ٤٣ بشأن ترتيب نزول السور المكية والمدنية .
(٢) سورة آل عمران ٧ .

عن قتادة قال: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة. وهي أشد القرآن على المنافقين [1]. ونكرر القول إن هؤلاء المؤمنين المتقين يستعجلون نزول سورة من القرآن الكريم على أشرف الأنبياء والمرسلين تتيح لهم شرف بذل الأرواح رخيصة في سبيل الله تعالى من أجل رفع راية هذا الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده.

وليس بخافٍ أن الجزئية الكريمة: ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة** ﴾ غاية في الدلالة على أن هؤلاء المؤمنين المتقين قمة في الإيمان بالله تعالى رباً، وبالرسول العظيم إماماً. وبالقرآن الكريم دستوراً، أليسوا هم الذين يتشوقون لنزول سورة من القرآن الكريم من رب العالمين بواسطة جبريل عليه السلام الروح الأمين إلى الرسول من البشر الكريم محمد ﷺ ؟ وليس بخافٍ كذلك أن هؤلاء المتقين بعد أن حقق الله تعالى رجاءهم بأن أنزل سورة محكمة ذكر فيها الإذن بالقتال صريحاً، قد صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه. إننا نفهم ذلك جيداً من المقارنة في الواقع بين موقف الفريقين ومن المقارنة في الآية الكريمة بين المؤمنين من ناحية والمنافقين من ناحية أخرى. وقد وصف المنافقون في الآية الكريمة التالية بأنه لم يصدقوا الله تعالى إذ خالف فعلهم قولهم قال تعالى: ﴿ **فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم** ﴾ وإن هذه الإشارة إلى عدم صدق المنافقين تقذف إلى أذهاننا الآية الكريمة من سورة الأحزاب التي أثنى الله تعالى فيها على هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه. ومن هؤلاء من قضى نحبه ومن هؤلاء من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. قال تعالى: [2] ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾. وإنه لجميل حقاً أن نسجل المناسبة الجليلة التي نزلت فيها الآية الكريمة والتي تعطي فكرة عن

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٣٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٣ .

التضحيات العظيمة التي قدمها في سبيل الله تعالى هؤلاء المؤمنون المتقون بما في ذلك الأرواح رخيصة في سبيله جل وعلا. عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين [1] الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم اعتذر إليك مما صنع هؤلاء. يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً [2] وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم. ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. [3]. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الاية [4] نزلت فيه وفي أشباهه: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . إلى آخرها. متفق عليه [5].

وإذا كان هذا هو موقف المؤمنين المتقين من الشوق المبرح لنزول القرآن الكريم، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن ينزل منجماً لتربية هذه الأمة المسلمة وتنمية خصائصها ومميزاتها، ومن الحرص على أن ينزل في قتال الكافرين سورة محكمة تتيح لتلك الفئة المؤمنة أن تبذل كل ما تملك من غال ورخيص بما في ذلك الأرواح في سبيل الله تعالى. فما هو موقف المنافقين في المقابل وقد استجاب الله تعالى دعاء هذه الفئة المؤمنة فأنزل سورة محكمة ذكر فيها الإذن بقتال الكافرين؟ الجواب في قوله تعالى:

---

(١) ليرين الله ، روي بضم الياء وكسر الراء ، أي ليظهرن الله ذلك للناس . وروي بفتحهما ومعناه ظاهر . والله أعلم . رياض الصالحين .

(٢) البضع بكسر الباء وسكون الضاد المعجمة ما بين الثلاث إلى التسع من العدد .

(٣) أي بأطراف أصابعه .

(٤) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

(٥) رياض الصالحين ص ٦٥ .

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾.

وأول ما يلاحظ هو أنه إذا كان من حكم نزول القرآن الكريم منجماً تربية المؤمنين والأخذ بهم برفق وتؤدة في مدارج الرفعة والرقي فإن في ذلك فضحاً للمنافقين وكشفاً لسرائرهم لأن الأوامر والنواهي آخذة دائماً وأبداً في النمو والاطراد. والاتجاه المنطقي أن ينمو المجتمع معنوياً وروحياً مع هذه التعاليم وهذا هو حال المؤمنين لا أن يتجه عكس تلك التعاليم وهذا هو حال المنافقين الذين نرى الآن موقفاً واحداً من مواقفهم الكثيرة المناوئة للدعوة إلى صراط العزيز الحميد.

ولا يخفى أننا بصدد أناس لهم ذات الاستعدادات والخصائص التي للفئة المؤمنة لو أنهم استفادوا منها وانتفعوا بها ومن أهم هذه الخصائص، فيما له علاقة بما نحن بصدده الآن، أن الفريقين عرب أقحاح، وتبدو الشقة بعيدة جداً بين المؤمنين والمنافقين حينما نتبين أن هؤلاء المنافقين انشقوا على الأرومة الطيبة لا بني قَيْلة الأوس والخزرج الذين لقبهم رب العزة في محكم كتابه وأشرف الخلق ﷺ في حديثه الشريف بالأنصار. يا لها من هوة سحيقة تفصل بين الأنصار من ناحية وبين المنافقين من ناحية أخرى. بينما الخصائص للفريقين في الأساس واحدة. وفرق بين الفريقين أن الأنصار آمنوا واهتدوا فزادهم الله تعالى هدى وآتاهم تقواهم، وأن المنافقين انصرفوا فصرف الله تعالى قلوبهم. ومن مظاهر ذلك الانصراف موقفهم من القرآن الكريم الذي ينزل وفيه ذكر القتال وإذن به قال تعالى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾.

إن الذي نزل من القرآن محكم وليس من المتشابه وإن القتال قد ذكر فيه بوضوح. فلا لبس ولا غموض ولا مجال للتأويل ومع ذلك فإن موقف المنافقين هو الرفض ولكنهم مغلوبون ليسوا قادرين على العمل مقهورون ليسوا قادرين على النطق وتلك طبيعة الشواذ في كل جماعة حينما تغلب عليهم روح الجماعة القوية بإرادتها وقدرتها على العمل الجاد البناء . يقول ابن تيمية [1] «والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه آثار الغضب وإن كان مما لا يمكن دفعه آثار الحزن. ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز» والمنافقون من الفريق الثاني وهذا واضح.

ويلاحظ أن الآية الكريمة تشير إلى القتال إشارة عابرة وتمسه مساً رفيقاً. إننا بصدد مجرد الذكر للقتال: ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال** ﴾ ومع ذلك فإن أولئك المنافقين تمتقع ألوانهم وترتعد فرائصهم ويهرفون بما لا يعرفون بسبب تلك الإشارة العابرة للقتال. لنتأمل كيف صورت الآية الكريمة جبن المنافقين وهلعهم لمجرد ذكر القتال ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾.

إن الذي يدل على مرض المنافقين المتمكن من قلوبهم أعينهم التي تدور جبناً وخوراً وأوجههم التي تمتقع ألوانها جزعاً وهلعاً. فمع كل درة على حدة في العقد النضيد لهذه الجزئية الكريمة.

إن أول ما يستوقفنا جملة «رأيت» خطاباً للمصطفى ﷺ إنها من ناحية تسلية له ﷺ وإنها من ناحية أخرى فضح لأولئك المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يضمرون. وها هي ذي الآية الكريمة تكشف له ﷺ وسيلة من

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٥٥ بيروت ١٩٧٦م – ١٣٩٦هـ.

وسائل فضح المنافقين يتوسل إليها بعينيه الكريمتين اللتين يتجه بهما إلى الوجه. أشرف أجزاء الجسم ولكن المنافقين أفسدوا ذلك الشرف الرفيع وشوهوا ذلك الجمال الناضر بأعين زائغة تدور وأوجه مصفرة لمجرد ذكر القتال وكأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

وقد وصفت الآية الكريمة أولئك المنافقين بالقول ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ وبطبيعة الحال نحن بصدد مرض للقلب معنوي. وهذا المرض هو النفاق بمعنى أن يعجز الكافر لنعمة الله تعالى عن إظهار بطره وإعلان كفره فيضطر لإظهار خلاف ما يبطن وإعلان خلاف ما يسر حقناً لدمه وماله. وحينما تتاح له أدنى فرصة للفت في عضد المجتمع ينتهزها. فإذا أحس بأنه على وشك أن يرغم بحكم اندساسه في جماعة المؤمنين على أن يقوم لصالح المجتمع أسوة بالفئة المؤمنة ببعض الأعمال التي فيها شيء من إيجابية أو مشقة. وكان بطبعه لا يقوى حسياً على أن يظهر على حقيقته فيرفض علناً أن يقوم بما يجب عليه ولا يقوى نفسياً على أن يقوم بعمل فيه صلاح الأمة المسلمة. لذا يغور دمه في جسده المغلوب ويمتقع لون وجهه على جهة الخصوص باعتباره مجمع الملامح وفي حكم الأطراف والشوي مائلاً إلى الصفرة عاكساً قهر نفسه وذلها دالاً على عجز جسده وهزيمته. وحينما تشير الآية الكريمة إلى مرض هؤلاء المنافقين معنوياً. فإنها تنبه إلى قيمة فساد القلب وصلاحه معنوياً وهذا يذكرنا بدور هذا القلب في الجسد كله حينما يمرض حسياً أو يصح. وقد شاءت العناية الإلهية أن يكون لتلك المضغة كل تلك الأهمية البالغة. فبناء على صلاحه معنوياً وجسدياً يصلح الجسد كله. وبناء على فساده يفسد الجسد. وصدق الرسول الكريم إذ يقول [1] «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وبما أن لفظة القتال التي يجيء ذكرها عرضاً تعني في عرف المنافق الجبان

(١) صحيح البخاري ١ ــ ٢٠ .

الرعديد الموت لأنه أحرص الناس على الحياة لذا فإنه وهو الهلوع الجزوع يتخيل نفسه وقد سيق فعلاً إلى الموت صبراً. أما لونه فقد عرفنا أن وجهه تحول أصفر كالزعفران. وأما عينه وهو في حكم من يترقب نزول السيف على رقبته إيذاناً بموته فإنها شاخصة تجاه من في يده السيف وعلى لسانه الحكم وإن الحاكم بالموت هنا والسيف ـ وقد عرفنا أننا نعيش مع خيال ذلك المريض القلب الجبان الرعديد ـ إنما هما ذلك الذي يجري على لسانه مجرد ذكر القتال في آيات بينات هي شفاء لما في صدور المؤمنين وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، بينما هي في حق المنافقين وأمثالهم مرض يضاف إلى مرضهم وعمى وضلال وعذاب في حقهم وكل ذلك معناه أن أعين أولئك المنافقين تدور كيفما اتفق كي تشخص مستقرة باتجاه خير خلق الله تعالى الذي يتلو ما يوحى إليه من لدن حكيم حميد.

وفي إمكاننا أن نتمثل شيئاً من الفرق الشاسع بين الموقف النفسي لتلقي المؤمنين المتقين آيات القتال في سبيل الله تعالى وهم الحريصون على الجهاد وبين الموقف النفسي لتلقي المنافقين تلك الآيات ذاتها. ومن أي الأفواه يتلقى أولئك المنافقون تلك الآيات البينات؟ من في أفصح خلق الله تعالى الذي أوتي جوامع الكلم ومن أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. وهل بعد هذا الضلال ضلال؟ لا والله الذي لا إله إلا هو لننظر إلى الجزئية الكريمة التي تصور موقف هؤلاء المنافقين نفسياً وقد جاء ذكر القتال. قال تعالى: ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾.

إن هؤلاء المنافقين وقد زاغت أبصارهم لذكر القتال وشخصت أعينهم جبناً وهلعاً وهم ينظرون إلى المصطفى ﷺ يرتل آيات القتال ترتيلا، بمثابة المغشي المغمي عليه فعلاً خوفاً من الموت الأكيد الصادر بحقه. وقد سيق هو إليه يرسف في قيوده وأغلاله ناظراً باتجاه من سيطير عنقه بسيفه حالاً. والشائع أن أبطأ الأوقات مروراً وأطول اللحظات انتظاراً هي التي يتوقع فيها القتيل

نزول السيف المصلت على عنقه. ويلوح أن كل حرف من آيات القتال بمثابة سيف مصلت يوشك أن يقتلع رؤوس المنافقين من مغارسها لا نامت أعينهم وهم الجبناء. ولا هدأت نفوسهم وهم الجزوعون. ولا استقرت قلوبهم وهم الهلوعون. إنهم عمى الأعين، صم الآذان. مرضى القلوب.

وما معنى القول فأولى لهم؟ إن لفظة أولى من الولي بمعنى القرب والدنو[1] يقال داره ولي داري أي قريبة منها[2]. فما الذي يراد له أن يكون قريباً منهم كل القرب؟ حينما نتحول إلى سورة القيامة نتبين أن مثل هذا التعبير استعمل في حق الذي لم يتصدق ولم يصل بل كذب وتولى قال تعالى[3]. ﴿ **فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى. أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى** ﴾ ولا يخفى أن لفظة أولى في كل من سورة محمد وسورة القيامة إنما تستعمل في حق المنافقين والكافرين على التوالي فينبغي أن يرتبط بهذا القرب نوع من الشر والعذاب والهلاك. وهنا يجدر بنا أن نشير إلى الحقيقة القائمة من كون القرآن الكريم قد استعار العديد من الألفاظ والتعابير التي جرت على ألسنة العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم واستعملها في ذات الطرائق التي اعتاد العرب استعمالها فيها. وفي دراساتنا المتأملة السابقة وبخاصة في دراستنا المتأملة لسورة الفرقان[4] سبق لنا أن أشرنا إلى عدد من تلك التعابير والألفاظ وإلى استعمال القرآن الكريم لها وفقاً لطرائق العرب في تعبيرها ومن ذلك على سبيل المثال القول على ألسنة الكافرين يوم القيامة وفي حق البحرين العذب الفرات والملح الأُجاج ﴿ **حجراً محجوراً** ﴾[5] قال تعالى[5]: ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً**

---

(١) و (٢) القاموس «ولى».
(٣) سورة القيامة ٣١ ــ ٣٥.
(٤) انظر مثلاً ص ١٥.
(٥) سورة الفرقان ٢٢.

محجوراً ﴾. وقال تعالى[1]: ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾.

والقول «قدمنا» قال تعالى[2]: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ والمستقر والمقيل قال تعالى[3] ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾ وقرة الأعين قال تعالى[4]: ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾.

وفيما يتصل بالقول: ﴿ أولى لك ﴾ والقول ﴿ أولى لهم ﴾ نحن في إمكاننا أن نقول الشيء ذاته بمعنى أن القرآن الكريم يستعير هذا التعبير الذي يجري على ألسنة العرب حينما يدعون على خصم لهم بأن يليه المكروه ويحيط به الهلاك ويحل به الموت. قال الجوهري: «وقولهم أولى لك تهديد ووعيد[5]» وقد اختلف العلماء فيه. أهو اسم أو فعل[6] فذهب الأصمعي مثلاً إلى أنه فعل وبأنه بمعنى قاربه ما يهلكه أي نزل به وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد. قال ثعلب: لم يقل أحد في أولى أحسن مما قال الأصمعي[7] وقال المبرد: يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت أولى لك أي قاربت العطب كما روى أن أعرابياً كان يوالي رمي الصيد فيفلت منه فيقول: أولى لك ثم رمى صيداً فقاربه ثم أفلت منه فقال:

---

(١) سورة الفرقان ٥٣ .
(٢) سورة الفرقان ٢٣ .
(٣) سورة الفرقان ٢٤ .
(٤) سورة الفرقان ٧٤ .
(٥) تفسير القرطبي ٦٠٦٣ والبحر المحيط ٨ ــ ٧١ وانظر القاموس .
(٦) البحر المحيط ٨ ــ ٧١ .
(٧) انظر البحر المحيط ٨ ــ ٧١ وتفسير القرطبي ص ٦٠٦٤ .